إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفي المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لردِّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسهم دون أنْ يعتدوا ، وفي المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج] بأسباب يُمكِّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يرونها . وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ(١) وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

فلو أنهم أُخرجوا بحقٍّ كأنْ فعلوا شيئاً يستدعي إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذنب ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ

(١) البِيعة : كنيسة النصارى ، والجمع بِيَع ، قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير . وقال أيضاً : الصوامع : التي تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود ، وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . [الدر المنثور للسيوطي ٦/٥٩] .

رَبُّنَا اللَّهُ .. (٤٠)﴾ [الحج] هذه المقولة اعتبرها القوم ذنباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه في أهل الأخدود : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)﴾ [البروج]

وفي آية أخرى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ .. (٥٩)﴾ [المائدة]

وفي قصة لوط عليه السلام : ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل]

إذن : لخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التي يُخْرَجُون من أجلها !! كما تقول : لا عيبَ في فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ في فلان إلا أنه لصٌّ . فهذه - إذن - صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويَّة بهذه الأحكام الفاسدة التي تدل على فساد الطباع ، وأيّ فساد بعد أنْ قلبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدلّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وتركهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. (٤٠)﴾ [الحج]

وفي آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ .. (٢٥١)﴾ [البقرة]

والفساد إنْ حدث بين الناس في حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوِّض ويُتدارك ، أمّا إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيماني في الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذي لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال في الفساد ، والاتّضاع في الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هَبْ أن ظالماً مستبداً في بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث في المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا بداية الفساد في الأرض .

فإنْ قلنا : هذا فساد بين الناس في حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفسادُ إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذي يربطهم بالسماء ؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرّبْتَ الموازين التي كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخص طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطْلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوي فيها الجميع في كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدَّى له الآخر ليُوقفه عند حدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلاً منهما مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابي منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. (٤٠) ﴾ [الحج] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكري ، وكأن الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما . فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشري ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً ؛ ليظلَّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغلْظة في الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبي ﷺ مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه

قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذي تمكّن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مُطأطىء الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس[1] السرج الذي يجلس عليه ، تواضعاً منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله في هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً[2].

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنِّي فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »[3].

فأيُّ رحمة هذه ؟ وأيُّ لين هذا الذي جعله الله في قلوب المؤمنين ؟ وهل مثل هذا الدين يُعارَض ويُنْصَرف عنه ؟

إذن : يُسلِّط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها في الظالمين في كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التي يُهلك الله فيها الظالمين بالظالمين .

---

(١) القَرَبُوس : حِنْو السَّرْج . وحِنْو كل شيء : اعوجاجه . فحنو الرَّحْل والسَّرْج : كل عود مُعْوج من عيدانه . [لسان العرب - مادتا : قربس . حنا] . وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤٠٥/٤) « أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمس واسطة الرَّحْل » .

(٢) قال أبو سفيان حين مرَّت أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

(٣) قال ابن إسحاق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » [السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤] .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ .. ⁽⁴⁰⁾ ﴾ [الحج]

صوامع جمع صومعة ، وهى مكان خاص للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهى مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة فى حضر ، إنما تكون فى الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس . وهى التى يسمونها الأديرة وتوجد فى الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ؛ لأنها رهبانية ما شرعها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً[1] ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ⁽²⁷⁾ ﴾ [الحديد]

ومعنى : ﴿ وَبِيَعٌ .. ⁽⁴⁰⁾ ﴾ [الحج] البِيَع هى الكنائس .

فالحق - سبحانه وتعالى - ما نعَى عليهم الانقطاعَ للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا[2] حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ⁽²⁷⁾ ﴾ [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون فى جلْوة يعنى : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبُد الله فى كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً فى بالك ونُصْبَ عينيك فى كُلِّ ما تأتى ، وفى كل ما تدع . إذن :

---

(١) الترهب : التعبُّد ، كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها وتعمُّد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب . والراهب : هو المتعبِّد فى الصومعة . [لسان العرب - مادة : رهب] .

(٢) أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٣١٥) .

هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله في خَلْوته ، ومَنْ يعبد الله في جلْوته .

لذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - قال عن الرجل الذي لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفَّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك في الحياة عبادةً ، حين تُخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد ليقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر في عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن في نيته وضميره ، المؤمن يعمل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفق من الباقي ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] هل يعني : مُؤدُّون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفي نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْي والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفي نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن في حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف في الشتاء في الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجاني ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضي الله عنه - وكان يسكن في حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسي) يُوصِّلنا بدل أن نمشي في وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق

(التاكسى) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفى لغسيل السيارة وتنظيفها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكنى قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسى) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحى ومصالح أولادى ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زدتَ على ذلك وجعلْتَ فى نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون] لم يقل مؤدون ؛ لأن ﴿ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون] تعنى : أن نيتهم فى الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شىء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التى تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية فى الإسلام »[1] لأنه اعتبر كل حركة مقصود منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لِمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً ليُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٥٤) : « قال ابن حجر : لم أره بهذا اللفظ ، لكن فى حديث سعد بن أبى وقاص عند البيهقى : إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٦/٢٢٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُهْداً تصوفٌ من تقى ... فسرٌّ من غمْرة الحياة بدين

إنما يُعرفُ التصوفُ في الـ ... ـسُّوق بمالٍ ومطْمعٍ وفتُون

ثم يقول تعالى : ﴿ وَصَلَوَاتٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وهذه لليهود يُسمُّون مكان للتعبد : صلوتاً . لكن : لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات و صوامع وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُدرِّج للقريب منه فالأبعد .

﴿ وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وهذه للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿ لَّهُدِّمَتْ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلي في أيِّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحلاً للعبادة ومَحلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْي ، فيمكنك أن تباشر عملك في مصنعك مثلاً وتُصلِّي فيه . لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمفْحص قطاة[1] بنى الله له بيتاً في الجنة »[2] .

(١) القطا : طائر ، سُمِّي بذلك لثقَل مَشْيه . [لسان العرب - مادة : قطا] ومفحص القطاة : حيث تُفرِّخ فيه من الأرض . والأفحوص : مَبِيض القطا لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه ، وكذلك هو للدجاجة [لسان العرب - مادة : فحص] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/١) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١٧/٤) من حديث أبي ذر ، وكذا (٢٤/٥) من حديث أبي بكر الصديق .

فقوله تعالى : ﴿ لَهُدِّمَتْ .. وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] تدل على مكان خاص للعبادة وإلاَّ لو اعتُبِرَتْ الأرضُ كلها مسجداً ، فماذا تهدم ؟

وعليه . فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأماكن الصلاة التي يتخذونها تحت العمارات السكنية ، هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كالصلاة في الشارع وفي البيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعني : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا في بيت الله الحرام نصلي فوق سطح المسجد ، ونتجه لجوِّ الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا في مخابيء أو في مناجم تحت الأرض ؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة . وكذلك في المسْعَى إذا ضاق الدور الأول يسعى الناس في الثاني وفي السطح ، لأن جو المسْعَى مَسْعَى .

إذن : المسجد ما حُكِر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوي ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ .

أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هَرَج ولَهْو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية .. إلخ فهذا كله يتنافى مع المسجدية التي جعلها الله حكْراً للعبادة من الأرض إلى السماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى ، ولاَ نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] لأن ذِكْرَ الله في المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس في الشروق ، وفي الزوال ، وفي الغروب . وباعتبار فارق التوقيت في كل بلاد الله تجد أن ذِكْر الله دائم لا ينقطع أبداً في ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُك يقيم ، وغيركما يصلي ، أنت تصلي الظهر ، وغيرك يصلي الصبح أو العصر ، بل أنت في الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك في الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هي منظومة عبادية دائمة في كل وقت ، ودائرة في كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذِكْراً كثيراً ؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهي أبداً ؟

ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفِر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهي ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهي بنُصْرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً في حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن في الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قويٌّ لا هوى له يستطيع أن ينفصل فيها ، وطالما تدخَّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى في القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها ؛ لأن الحق واحد في الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ فى نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعلِّمهم أصُول هذه المسألة . فيقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ(١) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. ④ ﴾ [محمد]

ومعنى ﴿ أَثْخَنتُمُوهُمْ .. ④ ﴾ [محمد] يعنى : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ④ ﴾ [محمد] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه فى الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. ④ ﴾ [محمد] منّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدى نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقِّ فى الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم فى نَشْر الرقِّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرِّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

(١) أثخنته الجراح : أمرضته عن الحركة أو عن القتال . [القاموس القويم ١٠٦/١] وقال أبو العباس : معناه غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

الاستعباد متعددة : فَمَنْ تحمل دَيْنًا وعجز عن سداده يُسْتعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنبًا وخاف من عقوبته اتخذوه عبداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار في الطريق جعلوه عبداً .. إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقِّ هذه ، وجعل الرقَّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم ، حيث لم يكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد في أنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظِّهار[1] ، وحثَّ على الصدقة في سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذي يريد العتق ويسعى إليه .. إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتُلْبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وإنْ حمَّلْته فأعِنْه ، وكما يقول النبي ﷺ « إنما هم إخوانكم »[2] .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ في الحروب أنهم يقارنون بين الرقِّ والحرية ، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك ،

---

(١) ظاهر من امرأته : قال لها أنها عليه كظهر أمه أو أخته أو غيرهما من المحرمات فيحرمها ولا يطلقها ، وكان العرب يفعلون ذلك إهانة لهن وإضراراً فلما اشتكت الزوجة التي ظاهرها زوجها للنبي ﷺ نزلت الآيات تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة كبرى إذا رغب في العودة إلى زوجته عقوبة له على الظهار . قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾ [المجادلة] الكفارة الكبرى إما : تحرير رقبة - صيام شهرين متتابعين - إطعام ستين مسكيناً .

(٢) عن أبي ذر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان .

المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكَّن منه في المعركة ، وكان باستطاعته قتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أخْذه رقيقاً ، فالمسألة للمقاتل المنتصر يقابلها حقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .

إذن : لا تقارن بين عبد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة]

هذه نتائج ستٌّ للأمر ﴿ قَاتِلُوهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما في (يُعذِّبهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما في (وَيُخْزِهِم) ، والخزي لأنهم كانوا مفتخرين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون ألاَّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك في : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .

ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله في اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة في الأداء القرآني ، وملْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله ؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرك بينهم حتى في جواب الأمر .

وحتى على اعتبار أنهم هُزِموا ، وكُسِرت شوكتهم ، وضاعتْ

هيبتهم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة الله بالكافرين في معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله في الخلق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه في الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرد على العصاة ، مغتاظ منهم ، فماذا قال الحق - تبارك وتعالى - لهم ؟ قال سبحانه : « دعوني وخلقي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إليَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحثوا في القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت في حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبافوق الأسباب ، أقلها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويكثّر المؤمنين في أعين الكافرين ليفتّ ذلك في عضدهم ويُرهبهم ويُزعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقي الرعب في قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم في إحْدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظفُّون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] عزيز : يعني لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهي المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون في مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] تعجب عمر[1] بفراسته وعبقريته : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم ونحن غير قادرين حتى على حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

فما دام أن الله قوي عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبي حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] . قال عمر : أيُّ جمع هذا ؟ أي أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

محكوم بها أزلاً : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]

فإذا ما تمت لكم الغَلَبة ، فاعلموا أنَّ لكم دوْراً ، ألاَ وهو :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

معنى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغَلَبة ، فلا يجترىء أحد عليهم أو يزحزحهم ، وعليهم أنْ يعلموا أن الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كُلِّ ما يُضعف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أُمِرْنا أن نطيعك ما أطعت الله .

والممكَّن في الأرض الذي أعطاه الله البأس والقوة والسلطان ، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مُكِّن في الأرض بباطل يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُناط بالمؤمن إنْ مُكِّن في الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] ليكونوا دائماً على ذِكْر وولاء من ربهم الذي وهبهم هذا

التمكين ؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خَمْس مرات في اليوم والليلة .

﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] فهذه أسس الصلاح في المجتمع والميزان الذي يسعد به الجميع .

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] يعني : النهاية إلينا ، وآخر المطاف عندنا ، فمَن التزم هذه التوجيهات وأدَّى دوره المنُوط في مجتمعه ، فبها ونعمتْ ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة .

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يهتم بما يفعله قومه من كفر وعناد ومجابهة للدعوة :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ يُكَذِّبُوكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحج] يعني : في دعوتك فيواجهونك ، ويقفون في سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست في ذلك بِدْعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، وعليك ألاَّ تلاحظ مسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن ، فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمَّل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على قَدْر رسالته ، فكلُّ رسل الله قبل محمد كان الرسول يُرْسَل إلى قومه خاصة ، وفي مدة محدودة ، وزمان محدود ، ومع ذلك تعبوا

كثيراً في سبيل دعوتهم ، فما بالك برسول بُعث إلى الناس كافة في كل زمان وفي كل مكان ، لا شكَّ أنه سيتحمَّل من التعب والعناء أضعاف ما تحمَّله إخوانه من الرسل السابقين .

وكان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعد رسوله ﷺ ويُوطِّنه على تحمُّل المشاقِّ من بداية الطريق حتى لا تفتَّ في عَضُده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدعوة ، يقول له : ليست السيادة أمراً سهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كما تنبه ولدك : انتبه ، فالامتحانات ستأتي هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ نماذج للمكذبين للرسل : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾

نلحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذبين ، إلا في قصة موسى فذكر المكذَّب ، فلم يقُل : وقوم موسى بل قال : وكُذِّب موسى ، لماذا ؟ قالوا : لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرَّض في دعوته لمن ادَّعى الألوهية ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الحج]

أمليت : أمهلتُ حتى هلتوه إمهالاً ، وهو إمهال بأنْ يمدَّ الله لهم ، ويطيل

فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر ، وفى آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا .. (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا المعنى يقول أيضاً : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تغتر بما فى أيديهم ؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت حسرتهم أكبر ، فمن عُدِم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يألَم لفقدها .

وقد حدث شىء من هذا فى أيام سعد زغلول ، وكان أحد معارضيه يشتمه ويتطاول عليه ، لكن فوجىء الجميع بأنه يُولِّيه منصباً مرموقاً فى القاهرة ، فتعجَّب الناس وسألوه فى ذلك فقال : نعم ، وضعته فى هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسَّر عليها حين تُسْلَب منه ، وتكون أنكى له . يعنى : يرفعه إلى أعلى حتى يهوى على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟!!

ثم يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] الحق سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به ، والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويَبَشُّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول : لماذا تنكَّر لى فلان ؟ يعنى : قطع عنى نعمته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن ينتزع منَّا الإقرار بقدرته تعالى على عقاب أعدائه ومُكذِّبى رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً فى

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى : هل جُوزِى الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أنْ نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] أى : إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٤٥) ﴾ [الحج] (كأيِّن) أداة تدل على الكثْرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كَمْ أحسنتُ إليك . تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهي تدل على المبالغة في العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران]

والقرية[1] : اسم للمكان ، وحين يُهلك الله القرية لا يُهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه . فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[2] الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] أي : اسأل أهل القرية .

---

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية . [القاموس القويم ٢ / ١١٥] .

(٢) قال قتادة : المراد بالقرية هنا مصر . نقله ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤٨٧) والقرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٥٨٠) وقالا : وقيل قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . لفظ القرطبى .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجِبك ، لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون ، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبر بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. ﴿٥٢﴾﴾ [النمل]

ومعنى : ﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] أي : بسبب ظُلْمها ، ولا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل]

فهلاك القُرى لا بُدَّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] الشيء الخاوي يعني : الذي سقط وتهدَّم على غيره ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] يدل على عِظَم ما حلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قلَبها رأساً على عَقِب ، وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] البئر : هو الفجوة العميقة في الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفيّ ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب وللزراعة .. إلخ ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾﴾ [القصص] أي : البئر الذي يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُستفاداً منها تلحظ حولها مظاهر

حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوي منها ، أما البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَرِبة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو[1] عليها الرياح ، وتطمسها فتُعطّل وتُهجَر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السُّقيا .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج] القصر : اسم للمأوى الفَخْم ؛ لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقي الإنسان في المأوى فيبني لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لابُدَّ له أنْ يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعني مكان السكن الذي يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه . يعني : بداخله كل مُقوّمات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات في قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعني : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و ﴿ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج] من الشيد ، وهو الجير الذي يستعمل كَمُونَة في بناء الحجر يعني : مادة للصق الحجارة ، وجَعْلها على مستوى واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللَّبِن ، والمونة من الطين ، أما في القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً العالي المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعني : رفعه وأعلى من مكانته ، والارتفاع من ميْزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف في العمارات مثلاً غيرها في القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

---

(١) سفت الريح التراب : ذَرَتْه ، وقيل : حملته . والسافياء : الريح التي تحمل تراباً كثيراً على وجه الأرض تهجمه على الناس . [لسان العرب ـ مادة : سفا] .